الفصل الثالث

علاقة القسم بالتعجب

المبحث الأول: علاقة القسم بالتعجب فى سورة يوسف.

المبحث الثانى: قسم الله وقسم سيدنا إبراهيم وعلاقته بالتعجب.

المبحث الثالث: قسم المشركين وقسم العبد المؤمن وعلاقتهما بالتعجب.

تمهيد

للتعجب صور كثيرة، كالتعجب بلام القسم، كما فى قولك: لله لا يؤخر الأجل، "وهناك تعبيرات غير منحصرة تستعمل فى التعجب، وذلك كأن يخرج الاستفهام إلى التعجب نحو﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا ﴾(هود: ٧٢) ونحو (سبحان الخالق المبدع) إذا تعجبت من صورة جميلة و(لا إله إلا الله) و(قاتله الله من رجل) و(العظمة لله) وما إلى ذلك. وهى تعبيرات غير منحصرة وإنما تكون بكل ما يؤدي معنى التعجب.[1]" وهناك التعجب مع تاء القسم؛ لأن فيها معنى التعجب والتفخيم، وتم تناولها فى الفصل الأول، وأنها تختص بلفظ الجلالة فلا تجر غيره، ويحذف معها الفعل وجوبا، ولم تأت إلا مع اسم الجلالة، لذلك فالقسم بها آكد وأفخم من القسم مع الواو، وتأتى فى حالات التعجب والتفخيم، وورد القسم بـ (التاء) فى القرآن الكريم تسع مرات، **واللافت للنظر أن كثرة هذه الأقسام فى سورة يوسف أو فى غيرها يناسب سياق السورة؛ حيث اشتملت هذه السور على كثير من مواضع التعجب والأمور النادرة، وجاء هذا الفصل فى ثلاثة مباحث كالتالى:**

المبحث الأول: علاقة القسم بالتعجب فى سورة يوسف، ويتناول القسم بـ (تاء القسم) فى أربعة مواضع فى هذه السورة:

١- القسم الأول لإخوة يوسف وعلاقته بالتعجب (فى الآية ٧٣).

٢- القسم الثانى لإخوة يوسف وعلاقته بالتعجب (فى الآية ٨٥).

٣- القسم الثالث لإخوة يوسف وعلاقته بالتعجب (فى الآية ٩١).

---

(١)معانى النحو للدكتور فاضل السامرائى: ٤/ ٦٦٨.

٤- القسم الرابع لإخوة يوسف وعلاقته بالتعجب (فى الآية ٩٥).

المبحث الثانى: قسم الله وقسم سيدنا إبراهيم وعلاقته بالتعجب، ويتناول علاقة القسم بالتعجب فى المواضع التالية:

١- القسم الأول لله فى سورة النحل وعلاقته بالتعجب.(فى الآية ٥٦).

٢- القسم الثانى لله فى سورة النحل وعلاقته بالتعجب.(فى الآية ٦٣).

٣- قسم سيدنا إبراهيم فى سورة الأنبياء وعلاقته بالتعجب.(فى الآية ٥٧).

المبحث الثالث: قسم المشركين وقسم العبد المؤمن وعلاقتهما بالتعجب، ويتناول قسم المشركين وقسم العبد المؤمن فى الآخرة وعلاقته بالتعجب فى الموضعين التاليين:

١- قسم المشركين وعلاقته بالتعجب. (فى الآية ٩٧ من سورة الشعراء).

٢- قسم العبد المؤمن وعلاقته بالتعجب.(فى الآية ٥٦ من سورة الصافات).

وتقوم فكرة هذا الفصل على الربط بين مواضع القسم والسياق الذى ورد فيه هذا القسم والعناصر التركيبية التى تتفق مع هذا السياق، **وتتفق هذه الأقسام فى أمور كثيرة، منها:**

١- **حرف القسم**: حيث جاء حرف القسم (التاء) مع هذه الأقسام تسع مرات.

٢- **المقسم به**: جاء المقسم به فى كل الأقسام اسم الجلالة (الله).

٣- **حذف فعل القسم.**

٤- **ارتباط القسم بأمور نادرة أو أمور فيها تعجب** تنوعت فى السور الخمس التى جاءت فيها هذه الأقسام.

المبحث الأول

علاقة القسم بالتعجب فى سورة يوسف

ورد القسم فى سورة يوسف متسقًا مع السياق، حيث تعرضت السورة لكثير من الأمور النادرة المتعجب منها، مثل اجتماع إخوة يوسف على التخلص منه إلا واحدا، ومراودة المرأة للرجل عن نفسها، وأن يرفض الشاب هذا الأمر، أن يتهم إخوة يوسف بالسرقة فى مصر وهم المعروف عنهم صالح الأعمال، ورد بضاعة إخوة يوسف إليهم، وأن يتحول الغلام من فتى ملقى فى البئر إلى عزيز مصر، وتتحقق رؤيته التى رآها فى الصغر بسجود أبيه وأمه وإخوته له... جاء القسم متسقًا مع هذه الأمور العجيبة النادرة بأداة القسم التاء الدالة على التعجب، ويمكن تصنيف الأقسام التى وردت فى سورة يوسف ولها علاقة بالتعجب كالتالى:

قسم إخوة يوسف عليه السلام، وجاء ذلك فى أربعة مواضع:

• **الموضع الأول**: فى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾[1]، **والخطاب** هنا للقائمين على خزائن مصر.

• **الموضع الثانى**: فى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾[2]، **والخطاب** هنا لسيدنا يعقوب عليه السلام.

---

(١)يوسف: ٧٣.

(٢)يوسف: ٨٥.

• **الموضع الثالث**: فى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[1]، **والخطاب** هنا لسيدنا يوسف عليه السلام.

• **الموضع الرابع**: فى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[2] **والخطاب** هنا لسيدنا يعقوب عليه السلام، كما فى الموضع الثانى.

واتفق عنصرا القسم: [حرف القسم (التاء)، والمقسم به (اسم الجلالة)] فى هذه المواضع الأربعة، ومن الملاحظ أن اسم الجلالة (الله) تكرر فى سورة يوسف (٤١ مرة) فى اثنتين وثلاثين آية، وهو المقسم به فى الأقسام الأربعة؛ ومن ثم جاء المقسم به متسقا مع سياق السورة، وسيتم تناول باقى عناصر القسم، وهى (المقسم عليه، عوارض التركيب، المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، الدليل على صدق الجواب) كالتالى:

المقسم عليه.

١ - المقسم عليه (فى القسم الأول لإخوة يوسف فى الآية ٧٣): ورد الجواب هنا فى قوله تعالى:﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾[3]، حيث جاء الجواب مسبوقا بجملة اعتراضية هى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ وهى جملة فعلية فعلها ماض مؤكد بـ (اللام)، و(قد)، ثم نفوا عن أنفسهم المجىء للإفساد بـ (ما)، والجواب الثانى لقسمهم هو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ وجاءت هذه الجملة منفية بـ (ما) التى سبقت فعل الكون، الذى جاء بصيغة الماضى لنفى السرقة عنهم فى الماضى والحاضر: "قوله: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ يحتمل أن يكون جوابا للقسم، فيكونون قد أقسموا على شيئين: نفي الفساد ونفي السرقة. وقوله: ﴿ مَّا جِئْنَا ﴾ يجوز أن يكون معلقا للعلم، ويجوز أن يضمن العلم نفسه معنى القسم فيجاب بما يجاب القسم. وقيل: هذان الوجهان في قول الشاعر:

---

(١)يوسف: ٩١.

(٢)يوسف: ٩٥.

(٣)يوسف: ٧٣.

ولقد علمت لتأتين منيتي إن المنايا لا تطيش سهامها[1]."

والقسم هنا يضم أمرين:"**أحدهما**: على أنهم ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض؛ لأنه ظهر من أحوالهم وامتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بأكل، ولا بإرسال في مزارع الناس حتى روي أنهم كانوا يسدون أفواه دوابهم لئلا يفسد زرع الناس، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات. **والثاني**: أنهم ما كانوا سارقين، وقد حصل لهم في شاهد قاطع، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر، ولم يستحلوا أخذها والسارق لا يفعل ذلك ألبتة، فلما بينوا براءتهم من تلك التهمة قال أصحاب يوسف صلوات الله عليه:﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ فأجابوه، ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يستعبدون في ذلك الزمان كل سارق بسرقته، فلذلك قالوا:﴿ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ أي: فالسارق جزاؤه، أي: فيسلم السارق إلى المسروق منه، وكان سنة آل يعقوب في حكم السارق، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق، ويغرمه قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده فرد الحكم إليهم؛ ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم[2]."

وأكدوا قسمهم بقولهم (لقد علمتم) لأن العرب تجرى العلم مجرى القسم: "أكدوا ذلك بالقسم لأنهم كانوا وفدوا على مصر مرة سابقة واتهموا بالجوسسة فتبينت براءتهم بما صدقوا يوسف عليه السلام فيما وصفوه من حال أبيهم وأخيهم.فالمراد بـ (الأرض) المعهودة، وهي مصر[3]."

جاء الجواب هنا مؤكدا بأكثر من مؤكد:

- اقتران الجواب بـ (اللام) و (قد) مع الفعل الماضى.

---

(١)الدر المصون فى علم الكتاب المكنون:٦/ ٥٢٨ والبيت للبيد ابن أبى ربيعة فى معلقته، وهو من بحر الكامل، وله رواية أخرى:

صادفن منها غرة فأصبنها إن المنايا لا تطيش سهامها.

(٢)اللباب فى علوم الكتاب لابن عادل الحنبلى:١١/ ١٦٥ - ١٦٦، الكشاف: ٣/ ٣٠٨.

(٣)التحرير والتنوير:١٣/ ٢٩.

- **تأكيد كلامهم بالفعل الماضى المنفى** (ما جئنا لنفسد فى الأرض) والفعل المضارع المسبوق بـ(لام التعليل) "نفوا عن أنفسهم الاتصاف بالسرقة بأبلغ مما نفوا به الإفساد عنهم، وذلك بنفي الكون سارقين دون أن يقولوا: وما جئنا لنسرق، لأن السرقة وصف يتعير به، وأما الإفساد الذي نفوه، أي التجسس فهو مما يقصده العدو على عدوه فلا يكون عارا، ولكنه اعتداء في نظر العدو[1]."، يفهم من السياق أن إخوة يوسف - عليه السلام - لم يكونوا سارقين؛ لأنهم لم يترددوا فى إقبالهم على المؤذن، وهو المفهوم من قوله تعالى:﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾[2]، فالسياق يوضح أنهم جمعوا بين القول (السؤال) والإقبال، وهو المفهوم من (واو العطف).

- **الاستفهام**: يفهم من سؤالهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾، وهو سؤال تعجب واستغراب؛ يفهم منه أنهم لا يعلمون المسروق للبدء بالسؤال.

- **اختيار الفعل (جئنا) بدلا من (أتينا)** لأن الفعل (جاء) يأتى مع الأمر الذى فيه صعوبة وشدة، ولم يأت فى القرآن الكريم إلا بصيغة الماضى فقط، ومجيئهم إلى مصر لم يكن بالأمر اليسير فلم يتحملوا مشقة السفر ومخاطر الطريق من أجل السرقة. ومن معانى جاء فى اللغة: "جاء يجيء جيئة ومجيئا والمجيء كالإتيان لكن المجيء أعم لأن **الإتيان مجيء بسهولة** والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارا بالحصول، ويقال جاء في الأعيان والمعاني ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره ولمن قصد مكانا أو عملا أو زمانا[3]."

- **التعبير بالكون المنفى فى زمن الماضى بقولهم**: ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ يعنى فى الماضى المستمر، أي ما كان من عادتهم السرقة فى الماضى، أى أنهم لم يرتكبوا هذه

---

(١)السابق..

(٢)يوسف: ٧١.

(٣)المفردات فى غريب القرآن، مادة (جاء): ١٠٣-١٠٤، وتكرر الفعل (جاء) فى سورة يوسف فى الآيات: ١٦، ١٨، ١٩، ٥٠، ٥٨، ٧٢، ٧٣، ٨٨، ٩٦، ١٠٠، ١١٠، وتكرار الفعل (أتى) فى سورة يوسف فى الآيات: ٣٧، ٤٨، ٤٩، ٦٠، ٦٦، ٨٣، ٩٣، ١٠٧.

التهمة من قبل، وإن كانوا قد ارتكبوا أشد منها بمحاولة التخلص من سيدنا يوسف عليه السلام، كما أن استخدام المصدر ﴿سَٰرِقِينَ﴾ بدلا من صيغة الفعل يفيد نفى السرقة عنهم على الإطلاق.

٢- المقسم عليه (فى القسم الثانى لإخوة يوسف فى الآية ٨٥): ورد هذا القسم من إخوة يوسف عليه السلام بعدما نفوا المجيء للإفساد أو السرقة، فى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[1]، وفى هذه الصورة يقسمون لأبيهم **تعجبا منه** لكونه لا يزال يذكر ابنه بعد هذا العمر "وروي: أنه ما جفت عيناه من فراق يوسف إلى لقائه ثمانين عاما، وأنّ وجده عليه وجد سبعين ثكلى، وأجره أجر مائة شهيد. وقال الزمخشري: فهو كظيم، فهو مملوء من الغيظ على أولاده، ولا يظهر ما يسوؤهم[2].."، حيث ورد أنه ظل يذكره بعد سن الثمانين **والمقسم عليه** هو قوله تعالى: ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[3]، **والجواب هنا جملة فعلية فعلها مضارع مسبوق باسم من أخوات كان، وهو (ما فتئ) وحذف حرف النفى**، أى ما تفتؤ تذكر يوسف، وهو يعنى الاستمرار والدوام، واختيار الفعل (تفتأ) يتناسب مع السياق والمقام الذى فيه سيدنا يعقوب - عليه السلام - لأن **من معانى الفعل فتئ (سكن، وانطفأ، ونسى)**، فمازال يذكر ابنه الذى فقده منذ كان غلاما، وما زال يبكيه حتى ابيضت عيناه من الحزن، فلم تنطفئ نار قلبه عليه، ولم ينسه، وليس هناك فعل آخر يناسب المقام يصلح لأن يحل محل الفعل (فتئ) فيه هذه المعانى الثلاثة مجتمعة يصلح لهذا المقام، كما أن هذا هو الموضع الوحيد فى القرآن الكريم الذى جاء فيه الفعل (فتئ)، وهو بمعنى ما (فتئ) فلا تستعمل إلا فى النفى، أى: "لا تفتأ تذكر يوسف."، والمراد فى هذا الجواب النفى؛ "لأن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفي **وعلامة الإثبات هي اللام ونون التأكيد** وهما

---

(١)يوسف: ٨٥.

(٢)البحر المحيط: ٥/ ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣)يوسف: ٨٥.

يلزمان جواب القسم المثبت فإذا لم يذكرا دل على أنه منفي لأن المنفى لا يقارنهما ولو كان المقصود ههنا الإثبات لقيل لتفتأن[1].."، وجاء هذا الجواب ردا على ما قاله سيدنا يعقوب بعدما أخبروه بالفجيعة الثانية، وهى عودتهم بدون أخيهم، فكان رده: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[2]، فتعجبوا من رده، حيث أبدى الأسف على سيدنا يوسف - عليه السلام - ولم يقل على أخيه الأصغر الذى اتهم بالسرقة فى مصر، وتعجبوا من تذكره يوسف حتى الآن، وذكر الزمخشرى الحكمة من ذلك:"لأنّ الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به[3].."، ولأنهما كانا من أم واحدة "المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد[4].."، كما أنه يعلم مكان بنيامين، أما سيدنا يوسف - عليه السلام - فلا يعلم أبوه عنه شيئا، ومازال معلقا برؤياه.

٣- المقسم عليه (فى القسم الثالث لإخوة يوسف فى الآية ٩١): وردت هذه الصورة فى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾[5] **والمقسم عليه** هو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾، **والجواب جملة فعلية فعلها ماض مسبوق بـ (اللام، وقد)** للدلالة على التحقيق، والتعجب هنا فيه شيء طريف، إذ حقدوا على يوسف من إيثار أبيهم والآن يرونه وقد آثره الله عليهم فنال إيثار الرب والأب، والإيثار التفضيل: "ويستعار الأثر

---

(١)روح المعانى: ١٣/ ٤١، الدر المصون:٦/ ٥٤٦، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٣/ ١٨٢، البحر المحيط: ٥/ ٣٨٤.

(٢)يوسف: ٨٣ - ٨٤.

(٣)الكشاف:٣/ ٣١٦.

(٤)مفاتيح الغيب - التفسير الكبير:١٨/ ١٩٧.

(٥)يوسف : ٩١.

للفضل والإيثار للتفضل ومنه آثرته، وقوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وقال: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾[1]."ثم اعترفوا بأنهم كانوا خاطئين فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾، وتكررت كلمة خاطئين فى سورة يوسف فى موضعين آخرين للتأكيد، فى قوله تعالى:﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴾[2]وقوله تعالى:﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾[3].

٤- **المقسم عليه (فى القسم الرابع لإخوة يوسف فى الآية ٩٥)**: جاءت هذه الصورة بعد القول بصيغة الجمع (قالوا) + تاء القسم + المقسم به (اسم الجلالة) + جواب القسم)، وذلك فى قوله تعالى:﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[4]، **والمقسم عليه** هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ **والجواب هنا جملة اسمية مثبتة مقترنة بـ (إنَّ + لام الابتداء)**، واستخدام الظرف (فى) لتجسيد الضلال بأنه شىء مادى منغمس فيه سيدنا يعقوب عليه السلام – على حد زعمهم – والمراد بالضلال هنا ربما يكون **(الخطأ) أو (الجنون) أو (الشقاء والفناء)** أو المراد به **المعانى الثلاثة؛ توسعا فى المعنى** لأن هذه المعانى الثلاثة تصلح للمقام من وجهة نظرهم كما ذكر من قبل من أن كلمة (تفتأ) التى وردت فى القسم فى الآية ٨٥ تضم معانى (سكن، وانطفأ، ونسى) فإن كلمة الضلال تضم المعانى السابق ذكرها، والمراد بالضلال فى اللغة "العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أو كثيرا... صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون بعيد، ألا ترى أنه قال في النبي

---

(١)المفردات فى غريب القرآن، مادة (أثر): ٩-١٠، لسان العرب: ٤/ ٥.

(٢)يوسف: ٢٩.

(٣)يوسف: ٩٧.

(٤)يوسف : ٩٥.

صلى الله عليه وسلم ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ أي غير مهتد لما سيق إليك من النبوة. وقال في يعقوب ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ وقال أولاده: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه[1]." تكررت مادة (ضل) ومشتقاتها فى سورة يوسف فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[2]. ووصف الضلال بأنه قديم وعرف بـ (ال) للدلالة على أن هذا الأمر ليس جديدا حادثا على أبيهم.

من الملاحظ أن جملة الجواب فى المواضع الثلاثة الأولى جاءت جملة فعلية، أى تدل على أحداث متغيرة، أما فى الموضع الرابع فكان الجواب جملة اسمية مؤكدة بأكثر من مؤكد للدلالة على الثبوت والتأكيد؛ لأن القسم هنا جاء ردًّا على تأكيد سيدنا يعقوب أنه يجد ريح يوسف، فجاء الجواب مؤكدا بهذه المؤكدات ردا على هذا التأكيد من سيدنا يعقوب عليه السلام، وجاءت هذه المؤكدات ليس لشك المخاطب وإنما لثقة المتكلم بما يقول بناء على المقدمات السابقة التى عرضها إخوة يوسف عليه السلام.

عوارض التركيب.

١ - عوار ض التركيب فى القسم الأول لإخوة يوسف (فى الآية ٧٣):

- **عدم الفصل بين القسم وجوابه بفاصل:** للدلالة على ثقتهم بأنفسهم، وعدم ترددهم فى القسم.

- **الاعتراض بالجملة الفعلية المؤكدة بـ (اللام) و (قد)** فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ للتأكيد على علم المخاطب بالجواب بأنهم ما جاءوا للإفساد أو السرقة.

---

(١)المفردات فى غريب القرآن، مادة (ضل): ٢٩٧، لسان العرب: ١١/ ٣٩٠،الكليات:١/ ٥٧٦.
(٢)يوسف: ٩٥.

- **تكرار مفردات القسم لتتسق مع سياق السورة**، حيث تكررت المواد المشتق منها مفردات القسم (**ما، عليم، جاء، أرض، سرق**) فى أكثر من موضع من السورة، كما يلى:

- **تكرار (ما النافية) فى جواب القسم فى قولهم:** ﴿ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ للتأكيد على نفى التهمة عنهم، ومن الملاحظ أن **(ما النافية) تكررت فى سورة يوسف أربعا وعشرين مرة فى اثنتين وعشرين آية**[1]،ويدل تكرار النفى فى سياق السورة، وآية القسم على كثرة التهم التى كانوا يتهمون بها؛ فالنفى فى الآية ١٧على أن أباهم لن يصدقهم؛ لأنهم بالفعل كاذبون؛ فالذئب لم يأكل سيدنا يوسف - عليه السلام - وكانت هذه هى التهمة الملصقة بهم والكذبة التى كذبوها فطبعتهم بالكذب وصبغتهم بصبغته، حتى وإن لم يكذبوا بعدها.

- **تكرار صفة (عليم) فى سورة يوسف**: تكررت هذه الصفة فى سورة يوسف فى الآيات التالية: (٦، ١٩، ٣٤، ٥٠، ٥٥، ٧٦، ٨٣، ١٠٠).

- **تكرار الفعل (جاء) فى سورة يوسف تسع مرات** فى الآيات (١٦، ١٨، ١٩، ٥٠، ٥٨، ٧٢، ٩٦، ١٠٠، ١١٠)، وتم التعرض له فى عنصر جواب القسم.

- **تكررت مادة (أرض) معرفة ومنكرة فى سورة يوسف تسع مرات** فى الآيات

---

(١)جاءت (ما) نافية لفعل الكون الماضى سبع مرات فى سورة يوسف، فى الآيات (٣٨، ٦٨، ٧٣، ٧٦، ٨١، ١٠٢، ١١١)، وجاء النفى على لسان سيدنا يعقوب – عليه السلام - ثلاث مرات فى الآيات (٦٧، ٨٦، ٩٦)، وجاء النفى على لسان سيدنا يوسف – عليه السلام – فى آيتين (٣٨، ٥٣) ، وجاء النفى على لسان إخوة يوسف أربع مرات فى الآيات (١٧، ٦٥، ٧٣، ٨١) يفيد تكرار النفى مع إخوة يوسف أكثر أنهم كانوا فى مواضع اتهام تحتاج منهم نفى هذه التهم عنهم، فقد نفوا عن أبيهم تصديقه لهم فى الآية ١٧بعدما جاءوا بفرية أكل الذئب لسيدنا يوسف فقالوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ ونفوا عن أنفسهم الكذب وطلب المزيد على هذه البضاعة التى ردت إليهم، فقالوا:﴿ مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ ونفوا عن أنفسهم المجىء إلى أرض مصر للإفساد، كما نفوا السرقة، فقالوا: ﴿ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ كما نفوا عن أنفسهم الشهادة إلا بما علموا، ونفوا علمهم للغيب، فقالوا ما قال لهم سيدنا يوسف حكاية عنه:﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾.

(٩، ٢١، ٥٥، ٥٦، ٧٣، ٨٠، ١٠١، ١٠٥، ١٠٩) وجاءت معرفة إشارة إلى أرض مصر فى الآيات (٥٥، ٥٦، ٧٣، ٨٠)"فالمراد بـ (الأرض) المعهودة، وهي مصر[١]."

- **تكرار مادة (سرق) فى سورة يوسف أربع مرات** فى الآيات (٧٠، ٧٣، ٧٧، ٨١) بصيغ مختلفة، والمراد بالسرقة فى اللغة "أخذ ما ليس له أخذه في خفاء وصار ذلك في الشرع لتناول الشيء من موضع مخصوص وقدر مخصوص[٢]."، واتهم إخوة يوسف بالسرقة بعدما وضع صواع الملك فى رحالهم بالتأكيد بـ (إن) فى قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ نفوا عن أنفسهم السرقة مطلقا فى الزمن الماضى أو فى الحاضر فقالوا: (ما كنا سارقين) بدليل أنهم ردوا البضاعة التى ردت إليهم وليست هذه صفات اللصوص، كما قيل إنهم كانوا يمارسون جميع أنواع الطاعات، وليست السرقة من شيمهم.

- **ذكر الفعل يسرق فى اتهام أخيهم بالسرقة - فى سياق السورة نفسها** - واتهام سيدنا يوسف عليه السلام:﴿ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ وذكروا أيضًا أن أخاهم (سرق) حكاية عن سيدنا يوسف:﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾.

- **تقديم نفى الإفساد على نفى السرقة:** قدم الإفساد على السرقة؛ لأن الإفساد أعم من السرقة، وللدلالة على تبرئتهم من تهمة السرقة التى هى نوع من الإفساد، **ومن اللافت للنظر أن مادة (فسد) لم تأت فى سورة يوسف إلا فى هذا الموضع، وكأن ذلك تأكيد على أنهم لم يحدث منهم هذا الأمر ولو مرة واحدة، والله أعلم،** والفساد فى اللغة هو "خروج الشيء عن الاعتدال قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا ويضاده

---

(١)التحرير والتنوير:١٣/ ٢٩.

(٢)المفردات فى غريب القرآن، مادة (سرق):٢٢١، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٤/ ١٤٩٦، تاج العروس من جواهر القاموس: ٢٥/ ٤٤٢.

الصلاح[1]."وروى عن إخوة سيدنا يوسف أنهم كانوا يعكمون أفواه الإبل حتى لا تعتدى على الزرع، كما كانوا مواظبين على أنواع الطاعات؛ "قال المفسرون حلفوا على أمرين: **أحدهما**: على أنهم ما جاءوا لأجل الفسادِ في الأرض؛ لأنَّه ظهر من أحوالهم وامتناعهم من التصرف في أموال النَّاس بالكليَّة لا بأكل، ولا بإرسال في مزارع النَّاس حتَّى روي أنهم كانوا يسدون أفواه دوابهم لئلا يفسد زرع النَّاس، وكانوا مواظبين على أنواع الطَّاعات.**والثاني**: أنهم ما كانوا سارقين، وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر، ولم يستحلُّوا أخذها والسارق لا يفعل ذلك ألبتَّة[2]."، ونفوا عن أنفسهم السرقة؛ لأنها ليست المرة الأولى التى يأتون فيها إلى مصر "أكدوا ذلك بالقسم لأنهم كانوا وفدوا على مصر مرة سابقة واتهموا بالجوسسة فتبينت براءتهم بما صدقوا يوسف عليه السلام فيما وصفوه من حال أبيهم وأخيهم[3]." ولو كانوا سارقين لنفوا عن أنفسهم السرقة أولا ثم نفوا الإفساد بعد ذلك، أو اكتفوا بنفى السرقة فقط "وأما الإفساد الذي نفوه، أي التجسس فهو مما يقصده العدو على عدوه فلا يكون عارا، ولكنه اعتداء في نظر العدو[4]."

- **العدول من صيغة الفعل المضارع (لنفسد) إلى صيغة اسم الفاعل (سارقين)**؛ لأنهم جاءوا للتجارة ولم يأتوا للإفساد، والمجيء فى سياق القرآن الكريم يأتى للأمر الذى فيع صعوبة وشدة،"جاء يجيء جيئة ومجيئا والمجيء كالإتيان لكن المجيء أعم لأن الإتيان مجيء بسهولة والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارا بالحصول، ويقال جاء في الأعيان والمعاني ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره ولمن قصد مكانا أو عملا أو زمانا[5]." فما تحملوا مشقة السفر ومخاطره

---

(١)المفردات فى غريب القرآن، مادة (فسد): ٣٧٩-٣٨٠، لسان العرب: ٣/ ٣٣٥، الصحاح تاج اللغة وسر العربية:٢/ ٥١٩.

(٢)اللباب فى علوم الكتاب: ١١/ ١٦٥.

(٣)التحرير والتنوير: ١٣/ ٢٩.

(٤)التحرير والتنوير:١٣/ ٢٩.

(٥)المفردات فى غريب القرآن:١٠٣-١٠٤.

ليفسدوا فى الأرض، وجاء باسم الفاعل (سارقين) للدلالة على الثبوت لآن الاسم يدل على الثبوت، أى ما كان من طبيعتهم السرقة أصلا: "وما كنا قط نوصف بالسرقة وهى منافية لحالنا[1]."

٢- عوارض التركيب فى القسم الثانى لإخوة يوسف (فى الآية ٨٥):

حذف (لا النافية) من الفعل (تفتأ): "أراد: لا تفتؤ، فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات، لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بدّ من اللام والنون[2]." أى (لتفتأن) والمراد: لا تزال، أو لا تفتر من حبه.

- **العدول بالفعل الماضى** (تفتأ) عن الفعل (لا تزال) لأن (فتئ) جمع بين ثلاثة معانى مجتمعة: **(انطفأ – سكن – نسى)** وهذا الفعل ناسب السياق والمقام، والفعل (فتئ) فى اللغة "(كمَنَع) تكون تامَّةً بمعنى سَكَن، وقيل (كَسَر وأَطْفَأَ) ... فَتَأْتُه عن الأَمرِ: سَكَّنْتُه، وفَتَأْتُ النَّارَ أَطفأْتُها[3]."

- **تكرار فعل الكون بصيغة المضارع** مرتين، فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ للدلالة على استمرار تذكره سيدنا يوسف - عليه السلام - بهذه الحال سيصيره إلى الهلاك، وكأنه تعمد ذلك، والحرض: الفاسد المريض، والحرض هو الذى أذابه الحزن أو العشق، وهى حالة قريبة من الموت، وأصله من الفساد فى الجسم والعقل من الحزن والهرم، "الحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك حرض[4]."

ما الحكمة من اختيار الهالكين بدلا من المهلكين؟ الهالكين اسم فاعل والمقدمات السابقة التى ذكرها إخوة يوسف - عليه السلام - تسبب له الهلاك من الفعل

---

(١)الكشاف:٣/ ٣٠٨.

(٢)الكشاف:٣/ ٣١٨.

(٣)تاج العروس من جواهر القاموس ،مادة (فتأ):١/ ٣٤٢، لسان العرب:١/ ١١٩، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:١/ ٦٢، المعجم الوسيط ، باب الفاء :٢/ ٦٧١.

(٤)المفردات فى غريب القرآن:١١٣، الصحاح تاج اللغة وسر العربية، مادة (حرض):٣/ ١٠٧٠.

(هلك) وكأنه بهذه الأمور يتعمد إهلاك نفسه، أما (مهلك) فهى من الفعل (أهلك)، أما (المهلكين) أى أن الهلاك لم يكن هو السبب فيه.

المناسبة بين المقسم به والقسم عليه.

١- المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه فى القسم الأول لإخوة يوسف (فى الآية ٧٣): ورد القسم هنا فى سياق تعجب وانفعال من إخوة يوسف الواثقين من أنفسهم بعدم الفساد أو السرقة، فناسب ذلك السياق اللغوى من حيث استخدام حرف القسم (التاء) الدال على التعجب، والحديث بصيغة الجمع لثقتهم من أنفسهم، ولم يتحدث واحد منهم عن نفسه، حيث جاء الحديث بصيغة الجمع: ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾، **واختيار المقسم به** (اسم الجلالة) بدلا من الرحمن أو الرب أو... مع أنه ورد فى غير القرآن تالرحمن: "سمع تالرحمن وترب الكعبة وتربى وتحياتك[١]."، أقسموا بالله العليم على نفى السرقة، واستهلوا الجواب بالفعل الماضى (علمتم) المسبوق بـ (اللام، وقد) لإفادة التحقيق، مما يعنى أن حالهم من الصدق لا يعلمه إلا الله قبل علم أهل مصر بهم؛ لأن **(علم) تأتى بمعنى القسم** وفيها معنى الاستشهاد "إذا قلت علم الله فقد استشهدت فلذلك صار فيه معنى القسم[٢]."، وهم قد علموا ذلك من خلال مجيئهم من قبل؛ فلم يؤذوا أحدا، أو تعتدى إبلهم على حرث أحد.

٢- المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه فى القسم الثانى لإخوة يوسف (فى الآية ٨٥): تتضح العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه من اختيار المقسم به باسم الجلالة (الله) الدال على الوحدانية، حيث قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[٣] مما يعنى تفرده بالعبادة، كما تفرد سيدنا يوسف - عليه السلام - بالحب الأكبر من أبيه دون أخوته،

---

(١)المقتضب للمبرد:٢/ ٣٢٤.

(٢)السابق.

(٣)محمد: ١٩.

هذا الحب الذى أذاب سيدنا يعقوب حتى ضعف وأشرف على الهلاك، كما أن اختيار اسم الجلالة (الله) فيه دلالة على القدرة التى ردت إلى سيدنا يعقوب - عليه السلام - بصره، كما ورد فى قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ، فلم تتحقق رؤية إخوة يوسف فى أبيهم، ولم يكن حرضا أو من الهالكين.

٣- المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه فى القسم الثالث لإخوة يوسف (فى الآية ٩١): تعجب إخوة سيدنا يوسف - عليه السلام - لما رأوا من حال يوسف والمكانة التى أصبح فيها، وهم الذين دبروا ومكروا للتخلص منه من قبل رغبة فى الفوز بحب أبيهم وبغضا فى يوسف عليه السلام، فقد ظنوا أنه فى عداد الموتى بعدما ألقوه فى غيابة الجب، فلما رأوه فى نعيم وحظوة أيقنوا أن ما حدث بأمر الله فأقسموا بـ (الله) على فضله عليهم معترفين بخطئهم، والتعجب واضح فى المقام الذى هم فيه واختيار لفظ الإيثار (لقد آثرك الله علينا) لتأكيد هذا التعجب.

٤- المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه فى القسم الرابع لإخوة يوسف (فى الآية ٩٥): هناك مناسبة بين حرف القسم (التاء) الدال على التعجب واضطراب إخوة يوسف وما يدور فى نفوسهم من تسفيه لأبيهم لتذكره يوسف عليه السلام بعد هذه السن لاعتقادهم أنه مات، ويتعجبون من ثقة أبيهم فى عودة سيدنا يوسف مرة أخرى إليه، وزاد الأمر عجبا أن صرح لهم أنه يجد ريح يوسف وكأنه أمامه، فناسب حرف القسم والمقسم به سياق التعجب الذى يعبر عن الحال التى يعيشها أبوهم؛ فقد تعجبوا من تذكره ليوسف من قبل فى قولهم: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾، وزاد التعجب قوة بعدما تم التصريح لهم باقتراب مجيئه؛ لأنه يشم ريحه، **ولا تشم إلا ريح الشىء القريب**، وكما خصوا أباهم بالضلال فى إضافة الضلال إليه بقولهم إنك لفى ضلالك القديم، أقسموا باسم الجلالة (الله) "فجاء القسم باسم الله تعالى الذى يختص سبحانه ولا يطلق على غيره ملائما لهذا المعنى الذى أشار إليه المقسم

عليه[1]." وأضافوا الضلال إلى سيدنا يعقوب - عليه السلام - كأنه متفرد به كما يزعمون، والله أعلم.

الدليل على صدق الجواب فى أقسام إخوة يوسف.

١- الدليل على صدق الجواب فى القسم الأول لإخوة يوسف (فى الآية ٧٣): جاءت الأدلة على صدق الجواب فى هذه الصورة من القسم فى أكثر من موضع:

أولا: دليل فى سياق القسم نفسه: من خلال عناصر القسم التركيبية والسياقية والمقام، حيث أكد إخوة يوسف نفى السرقة عن أنفسهم **بأكثر من مؤكد؛** فقولهم (لقد علمتم) إشارة إلى ردهم البضاعة من قبل عندما وجدوها فى رحالهم، وكان فى استطاعتهم أخذها، ويدلل **سياق السورة** أنهم لم يسرقوا، وأن ما حدث كان حيلة لأمر معين.

ثانيا: دليل سابق للقسم: حيث قال تعالى فى سياق القسم: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ثالثا: دليل لاحق للقسم: وهو التصريح بالحيلة التى بها أخذ سيدنا يوسف - عليه السلام - أخاه فى دين الملك، حيث قال تعالى فى السياق نفسه بعد القسم: ﴿ ... كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾، كما أن هناك أدلة أخرى على صدق الجواب، وهى:

- **إقامة الحجة على أنفسهم بالإجابة عن الاستفهام** بقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

- **كما أن فى رد سيدنا يعقوب عليه السلام دليل آخر** على نفى هذه التهمة، قال: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ

---

(١) القسم فى القرآن الكريم - دراسة بلاغية: ٢/ ٣١١.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

- استخدام (إنْ) الشرطية الجازمة للدلالة على الشك فى قولهم: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾[1].

- **نفيهم المجىء للإفساد:** جاءت كلمة (لنفسد) مفعولا لأجله لنفى المجىء للإفساد مبالغة فى نزاهتهم "فكأنهم قالوا: ما مر لنا الإفساد ببال ولا تعلق بخيال فضلاً عن وقوعه منا ولا يخفى بعده ﴿ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أي ما كنا نوصف بالسرقة قط[2]."

- **ورود كلامهم وقسمهم بصيغة الجمع** (قالوا، وأقبلوا، قالوا وأقسموا، قالوا تالله، ما جئنا لنفسد، وما كنا سارقين، قالوا جزاؤه) يدل على ثقتهم بأنفسهم، وإجماعهم على رأى واحد، كما أجمعوا من قبل على قتل يوسف، ولم يخرج عن هذا الإجماع إلا بنيامين المتهم بالسرقة الآن.

٢- الدليل على صدق الجواب فى القسم الثانى لإخوة يوسف (فى الآية ٨٥): كان إخوة يوسف يعتقدون أن أباهم سيهلك؛ لأنهم ما كانوا يعتقدون أن تجتمع هذه الأمور العجيبة فى يوم من الأيام، وهى أن يكون يوسف حيًّا؛ ثم يلتقون به بعد كل هذا العمر؛ لذلك **فالدليل هنا ليس على صدق كلامهم، وإنما على كذبهم،** لأنه صادر من إخوة يوسف الذين يتعجبون من أبيهم الذى لا زال يذكر أخاهم يوسف، وهم من حاولوا التخلص منه من قبل، ثم إنهم أقروا بضلالهم القديم وخطئهم فطلبوا من أبيهم المغفرة، وجاء ذلك فى **دليل لاحق للقسم فى السورة نفسها،** فى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

---

(١)يوسف: ٧٧.

(٢)روح المعانى: ١٣/ ٢٧.

٣- الدليل على صدق الجواب فى القسم الثالث لإخوة يوسف (فى الآية ٩١): ما رأوا من حاله بعد أن أصبح على خزائن الأرض حتى أصبحوا يطلبون منه الصدقة، وجاء **الدليل هنا فى موضعين:**

الأول: سابق على الجواب فى سياق السورة نفسه، فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

الثانى: دليل لاحق لجملة الجواب فى السياق نفسه أيضًا، فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

٤- الدليل على صدق الجواب فى القسم الرابع لإخوة يوسف (فى الآية ٩٥): جاء الدليل هنا **لاحقا للقسم، وفى سياق السورة نفسها**، ولم يكن الدليل هنا على أن سيدنا يعقوب فى ضلال كما زعم بنوه، وإنما لنفى الضلال عنه، حيث جاء الرد سريعا بـ (الفاء) الدالة على السرعة والتعقيب فى الآية التالية بقدوم بشائر كلامه، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾. ، فأقروا بخطئهم ودعوا أباهم أن يستغفر لهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ وتحقق صدق أبيهم ودخلوا على يوسف...

ومن الملاحظ تغير موضع الدليل بتغير القسم، ففى الموضع الأول (فى الآية ٧٣) أقسموا على أمر لم يحدث من قبل ولا الآن، ولن يحدث منهم فى المستقبل؛ لذلك **جاء الدليل سابقا للقسم وفى سياق القسم نفسه ولاحقا له**، وكذا فى الموضع

الثالث (فى الآية ٩١) لأن إيثار الله لسيدنا يوسف عليه السلام أمر واقع بالفعل قبل مقابلتهم لأخيهم ولا زال على حاله عزيز مصر وهم الذين يطلبون منه العطاء والصدقة. أما فى الموضع الثانى (فى الآية ٨٥) **فجاء الدليل لاحقا للقسم**؛ لأن أباهم لا زال حيا ولم يحدث له مكروه كما يظنون، وكذا فى الموضع الرابع (فى الآية ٩٥) جاء الدليل لاحقا لنفى زعمهم ولبيان صدق سيدنا يعقوب عليه السلام، والله أعلم.

المبحث الثانى

قسم الله، وقسم سيدنا إبراهيم وعلاقته بالتعجب

ورد القسم فى هذا المبحث فى **ثلاثة مواضع**: اثنين فى سورة النحل، **وموضع** فى سورة الأنبياء، وجاء القسم فى هاتين السورتين متسقا مع السياق؛ ففى سورة النحل التى يقال لها سورة النعم"لكثرة تعداد النعم فيها[1]." جاء القسم بتاء القسم الدالة على التعجب لإثبات البعث فى الموضع الأول، ولتوحيد الله بالعبودية فى الموضع الثانى، ردًا على إنكار نعم الله التى حوتها السورة، وجاء القسم بتاء التعجب جريا على ما ورد فى سياق السورة من أمور نادرة ومتعجب منها من أول السورة خلال سياقها، مثل خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان من نطفة فإذا به يتحول إلى خصيم مبين لمن خلقه من هذه النطفة، خلق الأنعام وما حوته من منافع للإنسان، نزول الماء من السماء وما تبعه من إنبات النبات من الأرض ... ومن الأمور المتعجب منها أيضا أن يجعل الإنسان لمن خلقه ما يكرهه هو لنفسه بأن جعلوا الملائكة بنات الله، ومنها أيضًا خروج اللبن وما فيه من منافع من بطون الأنعام من بين الفضلات الموجودة فى بطون الأنعام والدم، ومنها عجائب الله فى مملكة النحل وما يخرج من بطونها، وبعث الإنسان بعد موته ...وبذلك جاء القسم بتاء التعجب متسقًا مع سياق السورة فى سورة النحل، وكذا فى سورة الأنبياء؛ فقد حوت من الأمور المتعجب منها رفع السماء بلا عمد ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[2]وخلق الليل والنهار والشمس والنهار، كل فى فلك

---

(١)تفسير حدائق الروح والريحان: ١٥/ ١٣٢.

(٢)الأنبياء: ٣٢.

يسبحون﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾[1] ونجاة سيدنا إبراهيم من النار، ونجاة سيدنا يونس من بطن الحوت، ومعجزة سيدنا عيسى الذى ولد بلا أب، ... ويتناول هذا المبحث علاقة القسم بالتعجب فى المواضع التالية:

١- القسم الأول لله فى سورة النحل وعلاقته بالتعجب.(فى الآية ٥٦)

٢- القسم الثانى لله فى سورة النحل وعلاقته بالتعجب.(فى الآية ٦٣)

٣- قسم سيدنا إبراهيم فى سورة الأنبياء وعلاقته بالتعجب.(فى الآية ٧٥)

ويمكن تصنيفها كالتالى:

١- قسم الله تعالى، وذلك فى موضعين:

أ-فى قوله تعالى فى سورة النحل: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۚ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ، والخطاب هنا للمشركين، وجاء **الغرض من القسم فى هذين** الموضعين من سورة النحل، وفى القسم مع تاء القسم فى سورة الصافات لإثبات البعث وأن كل إنسان سيسأل عن كل فعل ويحاسب عليه.

ب- وقوله تعالى فى سورة النحل: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾، والمخاطب بالقسم هو الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- قسم سيدنا إبراهيم عليه السلام، وذلك فى موضع واحد: فى قوله تعالى فى سورة الأنبياء:﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾، والمخاطب بالقسم هم المشركون، وكان **الغرض من القسم** هو إثبات وحدانية الله بتكسير الأصنام التى يدعون أنها آلهة فلو كانت آلهة لدافعت عن أنفسها.

---

(١)الأنبياء: ٣٣.

وجاءت عناصر القسم كالتالى:

المقسم عليه.

١- **المقسم عليه (فى القسم الأول لله فى سورة النحل)**: تتركب هذه الصورة من (تاء القسم + المقسم به (اسم الجلالة) + جواب القسم)، **والمقسم عليه** هو قوله تعالى: ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾، والجواب هنا جملة فعلية فعلها مضارع مؤكد بـ (اللام) و(نون التوكيد الثقيلة) للتأكيد على الوعيد الذى يتوعده الله للمشركين الذين جعلوا لله شركاء وجعلوا لهم نصيبا مما رزقهم، ويتضح هنا أن الموقف موقف تعجب، حيث إنهم جعلوا لهؤلاء الشركاء نصيبا وحظا من رزق الله، فهذا أمر عجيب، والسؤال هنا يعنى الحساب، أى أن الله يهددهم؛ لأن السؤال هنا ليس عن جهل، وإنما هو سؤال توبيخ وتهديد، واستخدام فعل الكون (كنتم) مع الفعل المضارع (تفترون) للدلالة على أن هذا الفعل كان فى الماضى المستمر، فسوف يسألون، أى سيحاسبون ويعاقبون على أعمالهم وعلى استمرارهم فى هذا الافتراء والفعل افترى: فرى: "استعمل في القرآن في الكذب والشرك والظلم[١]." تكرار مادة فرى فى سورة النحل: تكررت مادة (فرى) فى سورة النحل خمس مرات فى خمس آيات[٢].

وسبق فعل القول بفعل الكون للدلالة على الماضى المستمر"والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدلالة على أن الافتراء كان من شأنهم، وكان متجددا ومستمرا منهم، فهو أبلغ من أن يقال: عما تفترون، وعما افتريتم[٣]."، تكررت كلمة سأل فى سورة النحل فى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

---

(١)المفردات فى غريب القرآن، مادة (فرى):٣٧٩، تاج العروس من جواهر القاموس: ٣٩/ ٢٢٩-٢٣١.

(٢)فى الآيات: ٥٦، ٨٧، ١٠١، ١٠٥، ١١٦.

(٣)التحرير والتنوير: ١٤/ ١٨٢.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

واختيار القسم بالتاء مناسب للأمر المتعجب منه "وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكد. والقسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغربا... ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون). عطف على جملة ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾ [سورة النحل: ٥٦]. هذا استدلال بنعمة الله عليهم بالبنين والبنات، وهي نعمة النسل، كما أشار إليه قوله تعالى: (ولهم)[1]." تكررت كلمة جعل فى سورة النحل أربع عشرة مرة فى عشر آيات[2].

٢- المقسم عليه (فى القسم الثانى لله فى سورة النحل): هذه هى الصورة الثانية من صور القسم الذى له علاقة بالتعجب فى القرآن الكريم الصادر من الله عز وجل بـ (تاء القسم) بعد الصورة الأولى فى سياق السورة نفسها فى الآية ٥٦، ولا يفصل بينهما إلا ست آيات، وجاء القسم فى هذين الموضعين فى سياق واحد وفى جمل معطوفة على بعضها لرد فكرة الشرك وتوحيد الله بالعبودية؛ حيث يخاطب الله نبيه بأن الله قد أرسل إلى الأمم السابقة رسلا يدعونهم إلى توحيده بالعبودية إلا أنهم اتبعوا الشياطين الذين زينوا لهم أعمالهم فتوعدهم الله بالعذاب الأليم، فى قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3]. **والمقسم عليه** هو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، والجواب هنا مؤكد بـ (اللام) و(قد) وضمير العظمة العائد على الله، عز وجل، وتأكيد الجواب هنا على إرسال الرسل لإرشاد الناس إلى توحيد الله بالعبودية من قبل فزين لهم الشيطان أعمالهم، وتكررت مادة (زين) فى سورة النحل مرتين

---

(١)التحرير والتنوير:١٤/ ١٨٠-١٨٢.

(٢)فى الآيات: ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٢٤.

(٣)النحل: ٦٣.

فجاءت كلمة (زينة) فى الآية ٨ فى قوله تعالى:﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]، ومرة بصيغة الفعل الماضى فى الآية ٦٣: "والزينة بالقول المجمل ثلاث: **زينة نفسية** كالعلم والاعتقادات الحسنة، **وزينة بدنية** كالقوة وطول القامة، **وزينة خارجية** كالمال والجاه... وقد نسب الله تعالى التزيين في مواضع إلى نفسه وفي مواضع إلى الشيطان وفي مواضع ذكره غير مسمى فاعله، فمما نسبه إلى نفسه قوله في الإيمان (وزينه في قلوبكم) وفي الكفر قوله: (زينا لهم أعمالهم) - (زينا لكل أمة عملهم) ومما نسبه إلى الشيطان قوله: (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم)[٢]."

وأرسل الله عز وجل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة لتوحيد الله بالعبودية فكما أضلهم الشيطان من قبل فهو يضلهم اليوم، أو أن المراد باليوم هو يوم القيامة الذى يتولى الله فيه الصالحين: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٣]، أما الشيطان فإنه يتولى الكافرين.

"ويكون في الكلام شبه الاحتباك. والتقدير: لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فكان وليهم حينئذ، وهو ولي المشركين اليوم يزين لهم أعمالهم كما كان ولي من قبلهم[٤]."

وقوله: اليوم (مستعمل في زمان معهود بعهد الحضور، أي فهو وليهم الآن. وهو كناية عن استمرار ولايته لهم إلى زمن المتكلم مطلقا بدون قصد، لما يدل عليه لفظه من الوقت الذي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وهو منصوب على الظرفية للزمان الحاضر. وأصله: اليوم الحاضر، وهو اليوم الذي أنت فيه[٥]."

---

(١)النحل: ٨.

(٢)المفردات فى غريب القرآن القرآن، مادة (زين): ٢١٨-٢٢٠، تاج العروس من جواهر القاموس: ٣٥/ ١٦١.

(٣)الأعراف: ١٩٦.

(٤)الأعراف: ١٩٦.

(٥)التحرير والتنوير: ١٤/ ١٩٥.

واستدعى الأمر هنا القسم؛ لأنهم ينسفون أصل العقيدة "فالعقيدة هي المحرك الأول للحياة، سواء ظهرت أو كمنت. وهؤلاء عرب الجاهلية كانوا يزعمون أن لله بنات هن الملائكة على حين أنهم كانوا يكرهون لأنفسهم ولادة البنات! فالبنات لله أما هم فيجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور[1]."

٣- **المقسم عليه (فى قسم سيدنا إبراهيم)**: بعد أن أظهر سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه الحجج والبراهين على دحض معتقداتهم فى آلهتهم وجادلهم بالتى أحسن، ونفى أن يكون من اللاعبين، أقر بوحدانية الله وانتقل إلى تغيير المنكر باليد بتكسير الأصنام التى يزعمون أنها آلهة، فأقسم على كيد الأصنام، حيث قال تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾[2]، **والمقسم عليه هو** قوله تعالى: ﴿ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾، والجواب هنا جملة فعلية فعلها مضارع مؤكد بـ (اللام) و(ونون التوكيد الثقيلة) للدلالة على عزم سيدنا إبراهيم عليه السلام على تغيير المنكر باليد وللدلالة على ما يدور فى نفسه من رفض لهذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر، ولأن هذا الأمر من الأمور الصعبة فى كل العصور أن يتصدى الإنسان للظلم" خصوصا فى زمن نمروذ وعتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على دينه[3]."، والكيد فى اللغة "ضرب من الاحتيال وقد يكون مذموما وممدوحا وإن كان يستعمل في المذموم أكثر وكذلك الاستدراج والمكر ويكون بعض ذلك محمودا، قال: (كذلك كدنا ليوسف) وقوله: (وأملي لهم إن كيدي متين) قال بعضهم: أراد بالكيد العذاب، والصحيح أنه هو الإملاء والإمهال المؤدي إلى العقاب كقوله (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) فخص الخائنين تنبيها أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة ككيد يوسف بأخيه

---

(١)فى ظلال القرآن:٣/ ٢١٧٧.

(٢)الأنبياء: ٥٥ - ٥٧.

(٣)الكشاف: ٤/ ١٥١.

وقوله (لأكيدن أصنامكم) أي لأريدن بها سوءا[1]."، وكاد سيدنا إبراهيم للأصنام وأراد قومه به كيدا بأن يحرقوه فجعلهم الله الأخسرين: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[2] وتنكير كلمة أصنام للتحقير من شأنها، وإضافتها إلى ضمير المخاطبين لبيان أنها خاصة بهم هم وليست آلهة وأنهم هم الذين اتخذوها آلهة.

الغرض من القسم.

الغرض من القسم (فى قسم الله فى سورة النحل): إثبات البعث وأن كل إنسان سيسأل عن كل فعل ويحاسب عليه، **أما (فى قسم الله الثانى فى سورة النحل) فكان الغرض منه توحيد الله بالعبودية**، وتوعد الكافرين وتهديدهم بما سينالهم من العذاب، وكذا **(فى قسم سيدنا إبراهيم عليه السلام) كان الغرض من القسم هو إثبات وحدانية** الله بتكسير الأصنام التى يدعون أنها آلهة فلو كانت آلهة لدافعت عن أنفسها.

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه.

١- المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه (فى القسم الأول لله فى سورة النحل): ناسب حرف القسم (التاء) الدالة على التعجب؛ لأنهم "يسألون سؤالا عجيبا بمقدار غرابة الجرم المسئول عنه[3]."؛ لأن المقام مقام تعجب، إذ كيف يجعلون لله الواحد المتفرد بالإلهية – يجعلون له نصيبا من الأموال التى رزقهم الله إياها من الأنعام والزرع وغير ذلك فأقسم الله للكفار لتسألن عن هذه الافتراءات"ووصف النصيب بأنه (مما رزقناهم) لتشنيع ظلمهم إذ تركوا المنعم فلم يتقربوا إليه بما يرضيه في أموالهم مما أمرهم بالإنفاق فيه كإعطاء المحتاج، وأنفقوا ذلك في التقرب إلى أشياء موهومة لم ترزقهم شيئا. ثم وجه الخطاب إليهم على طريقة الالتفات لقصد

---

(١)المفردات فى غريب القرآن، مادة (كيد): ٤٤٣، لسان العرب:٣/ ٣٨٣ ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٢/ ٥٣٣.

(٢)الأنبياء: ٧٠.

(٣)التحرير والتنوير: ١٤/ ١٨١.

التهديد[1]."ولم ترد كلمة (نصيب) فى سورة النحل إلا مرة واحدة فى هذا الموضع،"النصيب الحظ من كل شيء... والجمع أنصباء وأنصبة[2]."والرزق: هو ما ينتفع به، والرزاق هو الله تعالى الذى خلق الخلق وخلق لهم الرزق، سواء رزق الأبدان أو رزق القلوب "الرزق يقال للعطاء الجاري تارة دنيويا كان أم أخرويا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة يقال أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علما[3]." تكررت مادة (رزق) فى سورة النحل تسع مرات فى ثمانية مواضع[4].

٢- المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه (فى القسم الثانى لله فى سورة النحل): جاء القسم بالتاء لمناسبة السياق للتعجب ممن يجعلون لله شركاء، كما جعل الذين من قبلهم، والتعجب من أكثر من أمر؛ لأن هؤلاء الشركاء مخلوقون مثلهم فكيف جعلوهم بنات الله وهم يكرهونهم كما ورد فى الآية السابقة للقسم فى قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فجاء القسم بالتاء تعجبا من فعلهم، واختيار المقسم به (الله) لمناسبة المقام؛ لأن هذا الأمر خاص بالعقيدة التى عليها مدار الحياة فأقسم الله عز وجل بذاته وباسمه المتفرد به الذى لا يشاركه فيه احد للدلالة على وحدانية الله، وأن هذا الأمر ليس جديدا؛ فقد أرسل الله للأمم السابقة الرسل ليؤكدوا وحدانية الله، إلا أنهم فعلوا كما فعل الكفار فى عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - فاتبعوا الشيطان الذى زين لهم أعمالهم؛ لذلك فهو وليهم فى الدنيا ووليهم فى الآخرة.

---

(١)السابق.

(٢)لسان العرب، مادة (نصب): ١/ ٧٦١، المفردات فى غريب القرآن: ٤٩٤، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،:١/ ٢٢٥، تاج العروس من جواهر القاموس:٤/ ٢٧٦.

(٣)المفردات فى غريب القرآن، مادة (رزق): ١٩٤، لسان العرب:١٠/ ١١٥، الصحاح: ٤/ ١٤٨١، تاج العروس: ٢٥/ ٣٣٥-٣٣٧.

(٤)فى الآيات التالية من سورة النحل: ٥٦ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ١١٢ ، ١١٤ .

٣- المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه (فى قسم سيدنا إبراهيم): التعجب فى استخدام التاء من حروف القسم يتفق مع التعجب من صعوبة الاقتراب من هذه الأصنام؛ لأنها آلهتهم التى يعبدونها ولا يسمحون لأحد المساس بها أو التقليل من شأنها، حتى أنهم عدوا سيدنا إبراهيم من اللاعبين ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾[١] وأقسم بالتاء لأن فيها معنى التعجب" كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لأن ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته... والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الأصنام. وجوابه: قال ذلك توسعا لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها، وقيل: المراد لأكيدنكم في أصنامكم لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم[٢]."

الدليل على صدق الجواب.

١- الدليل على صدق الجواب (فى القسم الأول لله فى سورة النحل): ورد الدليل على سؤال الناس كافة، وتوعد الله المشركين بالسؤال فى مواطن كثيرة فى القرآن الكريم، منها ما ورد بالقسم فى سياق السورة السابقة، فى قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٣]، وغيرها من الأدلة التى تؤكد سؤال الناس على الأعمال يوم القيامة، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٤].

٢- الدليل على صدق الجواب (فى القسم الثانى لله فى سورة النحل): ما ورد فى الآية التالية فى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٥]، ثم ذكر الأدلة المادية التى تناسب السياق والمقام فى إقناع هؤلاء المشركين، فى السياق السورة نفسها فى قوله تعالى:

---

(١)الأنبياء: ٥٥.
(٢)مفاتيح الغيب – التفسير الكبير:٢٢/ ١٨٢.
(٣)الحجر: ٩٢.
(٤)النحل: ٩٣.
(٥)النحل: ٦٤.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ليعدد لهم النعم التى لم يشاركه فيها هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم لله أو غيرهم.

٣- الدليل على صدق الجواب (فى قسم سيدنا إبراهيم): قيام سيدنا إبراهيم بتكسير هذه الأصنام بدليل قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[1] فتحقق الجواب وأكد بما فعلوه من إعداد النار لإحراقه، وما ورد فى سياق السورة وفى سورة الأنبياء، فى قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[2]، وفى سورة الصافات من قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[3].

---

(١)الأنبياء: ٥٨ - ٦٠.

(٢)الأنبياء: ٧٠.

(٣)الصافات: ٩٨.

المبحث الثالث

قسم المشركين وقسم العبد المؤمن وعلاقتهما بالتعجب

يتناول هذا المبحث صورتين من صور القسم فى الآخرة، وهما:

١- **قسم المشركين يوم القيامة وعلاقته بالتعجب.**

٢- **قسم العبد المؤمن فى الجنة وعلاقته بالتعجب.**

حيث يتناول هذا المبحث قسم المشركين وعلاقته بالتعجب (فى الآية ٩٧ من سورة الشعراء)، وقسم العبد المؤمن فى الجنة (فى الآية ٥٦ من سورة الصافات)، **ويمكن تصنيفها كالتالى:**

١- قسم المشركين يوم القيامة، وذلك فى موضعين:

أ- الموضع الأول: فى قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، والمخاطب بالقسم هى الأصنام التى عبدوها من دون الله فى الدنيا، وكان **الغرض من القسم:** التحسر والاعتراف بالخطأ الذى وقع فيه المشركون فى الدنيا.

ب- الموضع الثانى: مع واو القسم فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[2]، والمخاطب بالقسم هو الله عز وجل، وتم تناول هذا الموضع فى القسم وعلاقته بالاستفهام فى سورة الأنعام.

---

(١)الشعراء: ٩٧.

(٢)الأنعام: ٢٢ -٢٣.

٢- **قسم العبد المؤمن فى الجنة يوم القيامة**، وذلك موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴾[1]، **وجاءت عناصر القسم كالتالى:**

١- **المقسم عليه (فى قسم المشركين يوم القيامة)**: هذه صورة من صور القسم المحكى عن المشركين وهم يتخاصمون فى النار، حيث قال تعالى: ﴿ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾[2]، وجاء القول بصيغة الجمع **(قالوا) + تاء القسم + اسم الجلالة + جواب القسم**، وجاء هذا التركيب فى سورة الأنبياء فى قوله تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ جاء القسم هنا بعد فعل القول بصيغة الماضى (قالوا) وربما يعود فعل القول على الشياطين عودا على ما ذكر فى سياق السورة نفسها من قوله تعالى: ﴿ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾، ويجوز "أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم. ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين. والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم: رؤساؤهم وكبراؤهم ، كقوله: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٧]. [3]"، والحديث عن المستقبل بصيغة الماضى يفيد التحقيق، وهو مشهد من المشاهد التى يختصم فيها المشركون فى النار الغرض منه تهديدهم ووعيدهم بما سيكونون عليه فى الآخرة، وارتبط القسم هنا أيضا بالاستفهام التوبيخى السابق فى قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴾[4]، و(هل) هنا حرف استفهام إنكارى للرد على المشركين فى عدم النفع أو النصرة من هؤلاء الشركاء، و(إن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف تقديره: إنه، أى الشأن كنا فى ضلال مبين، واللام فارقة بينها وبين النافية، ويمكن أن تكون (إن)

---

(١)الصافات: ٥٦.

(٢)الشعراء: ٩٦ – ٩٩.

(٣)الكشاف: ٤/ ٤٠١.

(٤)الشعراء: ٩٢ – ٩٣.

نافية بمعنى (ما) و(اللام) بمعنى (إلا) على تقدير: "ما كنا إلا فى ضلال مبين، وجاء القسم بالتاء تعجبا من ضلالهم الواضح، إذ كيف علقوا آمالهم بحجارة لا تضر ولا تنفع، ودل الظرف (فى) على انغماسهم فى الضلال والعجيب من هذا أيضا أنهم هم الذين وضعوا أنفسهم فى الضلال؛ لأنه سووا بين هذه الأصنام ورب العالمين "وضمير الخطاب في نسويكم موجه إلى الأصنام، وهو من توجيه المتندم الخطاب إلى الشيء الذي لا يعقل وكان سببا في الأمر الذي جر إليه الندامة بتنزيله منزلة من يعقل ويسمع. والمقصود من ذلك المبالغة في توبيخ نفسه.[1]".

٢- المقسم عليه (فى قسم العبد المؤمن فى الجنة): يقسم العبد المؤمن فى الجنة، فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴾[2] وهى آخر صورة من صور القسم التسعة بـ (تاء القسم) فى القرآن الكريم، وهى الصورة السادسة بعد القول (القسم المحكى)، والتى يتعجب فيها العبد المؤمن فى أثناء خطابه مع الكافر الذى كان ينكر البعث فى الدنيا وكاد أن يغوى هذا المؤمن فيرديه معه فى النار فى الآخرة، وتعددت آراء علماء التفسير فى طرفى الحوار (المؤمن، والكافر، أو الشيطان، أو أنهما شريكان من بنى إسرائل[3]، وهى صورة من صور النعيم الذى يتمتع به أهل الجنة، حيث نجاهم الله من النار ومن قرناء السوء، صورة تستدعى التعجب، حيث وجدوا أن الفرق بين الجنة والنار دقيق جدًّا، وكاد هذا المؤمن أن يكون فى النار لولا أن من الله عليه وأنقذه منها.

والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴾، والجواب بـ (إن) المشددة صورة من صور **جوابات القسم السبعة**، أو أنها نافية، واللام فارقة أو بمعنى (إلا)، والردى الهلاك أي لتهلكني بدعائك إياي إلى إنكار البعث والقيامة، "ومحل الغرابة هو خلاصه من شبكة قرينه واختلاف حال عاقبتيهما مع ما كانا عليه من شدة الملازمة والصحبة وما حفه من نعمة الهداية وما تورط قرينه في أوحال

---

(١)التحرير والتنوير: ١٩/ ١٥٤.

(٢)الصافات: ٥٦.

(٣)ينظر معانى القرآن للفراء: ٢/ ٣٨٥، ومعالم التنزيل: ٧/ ٤١.

الغواية[1]." فهذا المؤمن يحمد الله ويتعجب من هذا القرين الذى كاد أن يهلك؛ لأن "كاد لمقاربة الفعل، يقال كاد يفعل إذا لم يكن قد فعل، وإذا كان معه حرف نفي يكون لما قد وقع ويكون قريبا من أن لا يكون نحو قوله تعالى: (لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) – (وإن كادوا) – (تكاد السماوات) – (يكاد البرق) – (يكادون يسطون) – (إن كدت لتردين)[2]." ومعنى كاد هنا مع (إن) يؤكد أن (إن) نافية؛ لأن الفعل وقع ونجى المؤمن ووقع الكافر فى الردى "ردى في البئر وتردى، إذا سقط في بئر، أو تهور من جبل. يقال: ما أدرى أين ردى؟ أي أين ذهب؟[3]." فالمؤمن يحمد الله على نجاته من النار ويتذكر نعمة ربه فيقول: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾[4]، وتكررت كلمة محضرين فى سورة الصافات ثلاث مرات، ولم ترد إلا فى مواطن الذم، أو فى مواطن الشر"لأن أحضر لا يستعمل مطلقا إلا فى الشر[5]."

الغرض من القسم (فى قسم المشركين يوم القيامة): هو التحسر والاعتراف بالخطأ الذى ارتكبوه فى الدنيا.

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه.

١ – المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه (فى قسم المشركين يوم القيامة): أجاب المقسمون (المتكلمون) على الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾[6] فاختزلت الإجابة بالقسم مباشرة، وكأنهم قالوا: ليس هناك شركاء يستحقون العبادة من دون الله، فليس له وجود

---

(١)التحرير والتنوير: ٢٣/ ١١٧، ١١٨.

(٢)المفردات فى غريب القرآن، مادة (كيد): ٤٤٣.

(٣)الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (ردى): ٦/ ٢٣٥٥، القاموس المحيط: ١/ ١٦٦١، لسان العرب: ١٤/ ٣١٦، المفردات فى غريب القرآن القرآن، مادة (ردأ): ١٩٤، تاج العروس من جواهر القاموس:٣٨/ ١٤٣.

(٤)الصافات: ٥٧.

(٥)النكت والعيون: ٥/ ٥٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى: ١٨/ ٣٩.

(٦)الشعراء: ٩٢ – ٩٣.

إجابة على الاستفهام التوبيخى بـ (أين)، وليس هناك من ينصر غيره أو ينتصر لنفسه من دون الله إجابة على السؤال بـ (هل)، ثم صرحوا بما كانوا فيه من الضلال المبين بالقسم التعجبى للتأكيد على ما كانوا فيه، فهو أمر عجيب أن يقسموا، وأمر عجيب أن كانوا فى ضلال مبين.

٢- المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه(فى قسم العبد المؤمن فى الجنة): ناسب القسم بالتاء التى فيها معنى التعجب المقام الذى أقسم فيه المؤمن فى الجنة؛ حيث نجى من الهلاك، وفيه معنى التعجب للكافر؛ لأنه كان يظن أنه على صواب فوجد المؤمن الذى نجا من إغوائه فى الجنة، كما أن اختيار القسم باسم الجلالة (الله) يناسب أيضا المقام لتأكيد إيمان المؤمن بالله الذى نجا من الهلاك، وفى اسم الجلالة (الله) الدلالة على التوحيد" ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل [علي] ورحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده[1]." وما نجاه من الهلاك إلا الله الواحد، فناسب المقسم به، وحرف القسم والمقسم عليه وهو النجاة من الهلاك، ومن الأمور العجيبة أيضا تفرق القرين عن قرينة فى مكانين مختلفين (الجنة والنار)، وهذا أحد مشاهد نجاة المؤمنين فى الآخرة من القرناء﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾[2] وربما من التعجب أيضا أن هذا القرين السوء كان يستخف بما جاء به الرسل وبما دعوا إليه من توحيد الله بالعبودية واتبع الصراط المستقيم حتى ينجو من العذاب فوجد المؤمن فى الآخرة أن هذا الاستخفاف يستحق التعجب بعدما رأى مصيره ومصير هذا الكافر.

ومن التعجب الذى ورد فى سياق القسم أيضا الاستفهام بقوله تعالى:﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾؛ لأن الهمزة للاستفهام

---

(١)تفسير ابن كثير: ٧/ ١٦.
(٢)فصلت: ٢٥.

التعجبى والسخرية والاستهزاء بالكافرين والتلذذ بنعمة الله، و(الفاء) عاطفة على مقدر بعد الهمزة (أنحن مخلدون فما نحن بميتين ..)[1].", وهناك تناسب بين التعجب فى أسلوب القسم فى الآية ومواطن التعجب فى السورة " ومنها الحديث عن شجرة الزقوم وكونها تنبت فى أصل الجحيم فلا تحترق، ثم تصوير ثمرها بأغرب صورة وهي صورة رؤوس الشياطين، ثم ما تضمنه بعض القصص من ذلك؛ كنجاة نوح عليه السلام، وكقصة إبراهيم فى النار التى أضرمها له قومه فلم تحرقه، وكقصته مع ابنه الذي كاد أن يذبحه، وكذلك من نجاة موسى وهارون ولوط ويونس- عليهم السلام - من خوارق العادات، ثم حكاية الزعم الذي كان يقوله كفار قريش في افتراء وجرأة على الله تعالى[2]."

الدليل على صدق الجواب.

١- الدليل على صدق الجواب(فى قسم المشركين يوم القيامة): ورد القسم العجيب من المشركين فى سورة الشعراء بأنهم كانوا فى ضلال مبين، وهذا اعتراف منهم، وأن الذين أضلوهم مجرمون، ووصفهم بالمجرمين لأنهم أضلوهم، وهؤلاء المشركون لا يجدون لأنفسهم شافعين ولا صديق حميم، والعجب أنهم يتمنون ويرغبون فى العودة إلى الدنيا مرة أخرى ليكونوا من المؤمنين، ووضحوا سبب ضلالهم من خلال ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] وورد فى سياق السورة نماذج من الأمم السابقة التى ضل فيها من ضل بعدما جاءتهم الرسل فورد فى السياق تكذيب قوم سيدنا نوح عليه السلام، وما ورد من قوله تعالى فى الآيات من ١٠٥- ١٢٢، والتى تبدأ بقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾، ثم ورد فى سياق السورة تكذيب قوم عاد لسيدنا هود عليه السلام فى الآيات من

---

(١)أسلوب الاستفهام فى القرآن الكريم: ١٢٠.

(٢)القسم فى القرآن الكريم – دراسة بلاغية: ٢/ ٣٦٤.

(٣)الشعراء: ٩٨ - ١٠٢.

١٢٣-١٤٠والتى تبدأ من قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾، ثم ورد تكذيب قوم لوط عليه السلام فى الآيات من ١٦٠-١٧٥، ثم ورد تكذيب أصحاب الأيكة قوم سيدنا شعيب فى الآيات من ١٧٦-١٩٠، وكل هذه القصص فى سياق السورة ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، وكل هذا التكذيب دلائل على تكذيب المشركين الذين يتمنون أن تكون لهم كرة ثانية إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين، وغيرها من الأدلة على تكذيبهم فى سياق السورة وسياق القرآن الكريم، والله أعلم.

٢- الدليل على صدق الجواب (فى قسم العبد المؤمن فى الجنة): من هذه الأدلة فى سياق السورة قوله تعالى: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[1]، فالموت دليل على البعث ومحاسبة كل مخلوق على أعماله، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، أى نجاة المؤمنين فى كل زمان.

(١)الصافات: ٥٨ – ٥٩.